

لغة الموسيقى كأداة للتعبير الفني

زرياب المتوفى سنة 238 هـ.

للشيخ الفاضل السيد محمد باقر

عضو المجمع العلمي العراقي

يأخذ احسن ما يسمع ، ويختار خير ما ينفع ،
فحصل على ثقافة جامعة في الادب والعلم والفن ،
ولكنه كان يؤثر الفناء على غيره ، وله من صوته
الجميل خير مساعد .

لازم اسحاق الموصلي - استاذ الفنين في
عصره - ليأخذ عنه ما لم يجده عند غيره . واسحاق
الموصلي : من علماء عصره ، ومكانته من العلم والادب
والشعر ما يقول عنها ياقوت الحموي : « لو اردنا
استيعابه لطلال الكتاب ، وخرجنا عن غرضنا من
الاختصار . ومن وقف على الاخبار ، وتبع الآثار
علم موقعه » .

كان يدخل على المأمون منع اهل العلم والادب
والرواية ، ثم كان يدخل مع الفقهاء ويده في يد القضاة ،
حتى يجلس بين يدي المأمون - وكان المأمون يقول
عنه : « لولا ما سبق لاسحاق على الستة الناس ،
وشهر به من الفناء عندهم لوليت القضاة بحضرتي ،
فانه اولى به واحق واعف ، واصدق تدينا من هؤلاء
القضاة » .

أخذ زرياب عن هذا العالم الاديب ، والفنان
البارع ، واقتبس من ادبه وفنه . وكان اسحاق يعني
بهذا الفتى لما رآه عليه من الذكاء والفطنة وسرعة
الاخذ كما انه من موالى امير المؤمنين ، فكان يحضره
مجالسه التي يعقدها في داره ، والتي كانت مجمعا

ابو الحسن علي بن نافع مولى امير المؤمنين الخليفة
المهدي بن المنصور العباسي ، كان اسود اللون ، حلو
الشمال ، جميل الصوت ، فصيح اللسان ، فلقبوه
« بزرياب » تشبيها له بطائر غرد ، حسن الصوت ،
يقال له « زرياب » . نشأ زرياب في بغداد ، وهي اذ
ذاك : دار السلام ، وقبة الاسلام ، مقر الخلافة ،
ودار العلم والادب والحكمة ، ومجمع اهل الفنون
والصناعات ، حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وهو
ما حمل الامام الشافعي (رض) ان يقول لمن لم ير
بغداد : « ما رايت الدنيا ولا الناس » .

وزرياب يتقلب في قصور الخلافة ، وما فيها
من ترف ونعيم ، وخمائل باسقة ، وازهار عبقة ،
وجنات تجري من تحتها الانهار ، وملاعب تميز فيها
كواعب ، قد جمعن الظرف والادب ، والفن والجمال
والدلال .

كن فتنة الناظر ، وغرة العابر ، وخل المقيم ،
مما حمل الكتاب والشعراء ان يهيموا بوصفها ،
واتخذوا من حدائقها وملاعبها المسارح التي مثلت
فيها فصول « الف ليلة وليلة » .

في هذا المحيط الزاهي نشأ الفتى زرياب ،
الذكي الفؤاد ، الدقيق النظر ، الصافي البصيرة ،
فكان يتقلب في نعيمها ، ويتفيا ظلالها ، ويستمتع
الى كواعبها ، ويتصل بمن يرتادها من اهل الادب
والفن ، فيقتبس من علمهم ، وينهل من ادبهم :

حضر اسحاق الموصلي مجلس الرشيد ،
وتشعب الحديث في الادب والفن ، فطلب الرشيد من
اسحاق مغنيا مجيدا للصنعة . لم يشتهر مكانه اليه .

واسحاق كان يتقرب الى الرشيد بكل ما
يؤنس ، ويطرفه بما عنده من اصوات وظرف وادب ،
واراد ان يتحف الرشيد بأحد تلاميذه - من موالي
دار الخلافة - لما كان يعرف فيه من الذكاء والفطنة
وسرعة التلقي عنه . فقال اسحاق للرشيد يا مولاي:
عندي تلميذ - وهو مولى لكم - اسود اللون . عذب
الشمال ، حلو التفريد ، سمعت له نزعاً حسنة ،
ونغمات رائعة ، ماتاطة (1) بالنفس ، اذا أنا وقفته
على ما استغرب منها - وهو من اختراعي . واستنباط
فكري ، واحدس أن يكون له شأن - فان أذن لي
أمير المؤمنين قدمته اليه . ولم يعلم اسحاق ان هذا
الذي يتوسم فيه الذكاء والفطنة سيفني أمير المؤمنين
بما لم يحسنه اسحاق . وسيباغته بما وضع وأبدع .

أمره الرشيد باحضاره - لعل حاجته تكون
عنده ، وهكذا فان الساعة التي كان يترقبها زرياب
قد أتته عفوا ، فقد أمر الخليفة باحضاره اليه ليفني
إمام استاذة الذي أخذ عنه .

أخذ زرياب يعد عوده ، وأحسن ربط أوتاره ،
وأختار الاصوات التي سيفني الخليفة بها ، وببز
استاذة ويفوقه .

حضر زرياب مع استاذة اسحاق يحمل العود
الذي قد أعدده لنفسه ، وهو يختلف عن عود استاذة ،
ومثل إمام الرشيد ، واستاذة فخور بتلميذه الذي
سيفني أمير المؤمنين بما استنبطه هو ولقنه إياه .

كلم الرشيد زرياب ، فأجابه زرياب بأحسن
منطق وأوجز خطاب ، مع فصاحة لسان وظرف
وادب .

سأله الرشيد عن معرفته بالفناء ، فقال : نعم
أحسن ما لا يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا
يحسنونه ، مما لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر الا لك ،
فان أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك .

بهت استاذة اسحاق مما سمع ، ولم يكن
يتوقع هذا ، فهل يجزؤ أحد إمام اسحاق الموصلي أن

لاهل الفنون والآداب ، وزرياب ينهل من كل ما يروق
له ، وما يؤهله ان يخلف استاذة في مكانته .

ينزل اسحاق عناية خاصة في تدريبه وتعليمه
الاصوات التي يضعها ، والإيقاعات التي يبدعها .
وكان الفتى النابه ينصرف الى ما يلقى استاذة ،
ويتأمل في اصواته ويدقق مواضع القوة فيها ، فكان
في طبيعة الذين يأخذون عنه ، وهذا ما حمل استاذة
على مضاعفة العناية به ، والانصراف الى تعليمه كل
نادر وغريب ، حتى كان من طلابه الذين يفاخر في
تعليمهم وتهذيبهم .

كان زرياب كلما تلقى صوتاً من استاذة اسحاق
- او من غيره - تلقف الصوت وردده مع نفسه حتى
يتقنه ، فاذا عاد الى داره واختلى بنفسه ، أجرى
على الصوت ما يبدو له اذا ما غير في تردده ،
فلم يزل يبدل وينتج ويهذب في الصوت ، حتى
يبتكر صوتاً جديداً جميلاً قائماً بذاته لم يسبق اليه .

وهكذا كان دأبه في كل صوت يسمعه ، او
ضربات يثقلها من شيخ المفين اسحاق الموصلي ،
فانه يدخل عليهما من التعديل والابتكار ما يجعلهما من
أجمل ما أبدعته قريحة هذا الفتى الناشئ .

اشتغل زرياب بهدوء وسكينة ولم يطلع احداً
على ما كان يقوم به ، حتى استاذة الذي تربى بين
يديه ، وأخذ عنه ، فانه لم يكن يعلم ما عند زرياب من
روائع الاصوات - وزرياب مستمر التردد الى
استاذة ، يسترق من اصواته ، ويلتقط من ظرفه
وادبه ، ويواصل التهذيب والتحسين والابتكار ، حتى
صار يطمع ان يخلف استاذة في فن مبتكر ، بل كان
يطمع الى أكثر من هذا - وهو ان يبهز استاذة بما لم
يسمع مثله .

أخذ زرياب يترقب اليوم الذي يباغت فيه
المجتمع بفن دقيق مبتكر ، يعجز استاذة - استاذ
الفن والطرب في بغداد - عن الاتيان بمثله ، مما
حمّله على حسده وتهديده بالقتل ان لم يرحل عن
بغداد ، ويحافظ على منزلته التي كان عليها في بلاط
الرشيد .

يقول ما قاله هذا التلميذ الناشيء ؟ وصار يترقب
سماع الصوت بدهش وعجب .

امر الرشيد باحضار عود استاذة اسحق ليفني
زرياب . فلما قدم اليه وقف عن تناوله وقال : يا
امير المؤمنين : لي عود نحتة بيدي ، وارفعته باحكامي
ولا ارتضي غيره - وهو بالباب - فلياذن لي امير
المؤمنين في استدعائه : فامر الرشيد بادخاله اليه .

تأمله الرشيد ، وكان شبيها بالعود الذي دفعه
له - عود استاذة - وقال له الرشيد : ما منعك ان
تستعمل عود استاذك ؟ فقال زرياب : ان كان مولاي
يرغب في غناء استاذي ، غنيته بعوده ، وان كان
يرغب في غنائي فلا بد من عودي . فقال له الرشيد :
ما اراهما الا واحدا .

فقال زرياب : صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي
النظر غير ذلك ، ولكن عودي - وان كان في قدر
جسم عوده ومن جنس خشبه - فهو يقع من وزنه
في الثلث او نحوه . واوتاري من حريز لم يفلز
بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة . وبمها ومثلثها
اتخذتهما من مصران شبل الاسد ، فلها في الترسم
والصفاء والجهارة والحدة اضعاف ما لغيرها من
مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على
تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها .
فاستبرع الرشيد وصفه واذهل اسحق ما سمع .
ثم اندفع زرياب وغنى :

يا ايها الملك الميمون طائره

هارون راح اليك الناس وابتكروا

- 3 -

سقط في يد اسحق فقد سمع من احد تلاميذه
ما فيه من الروعة والابتكار ، مما جعل امير
المؤمنين يعجب به غاية الاعجاب ، ويؤكد على
اسحق : انه لولا ما يعلمه عنه من الصدق لانزل
المقوبة به ، اذ لم يطلع على ما قد ابتكره هذا الفنان
المبدع - وهل يترك اسحق الموصلي زرياب معه في
بغداد يتبوا مكانته ؟ بل يسمو فوقه فيبعده عما هو
عليه ، وتكون له زعامة الفناء في دار السلام .

فلا بد من ان يصارحه بما يكنه له صدره من
الحسد ، وان بقاءه لا يمكن ان يكون في بغداد ، والا
يؤدي به الى موته .

خلا اسحاق بزرياب وقال له : يا علي ، ان
الحسد اقدم الادواء وادوؤها ، والدنيا فتانة ،
والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ،
وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجادتك ، وعلو
طبقتك . وقصدت منفعتك ، فاذا قد اوتيت نفسي
من مأمنها بادنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ،
وترتقي انت فوقي ، وهذا ما لا اصاحبك عليه - ولو
انك ولدي - ولولا رعيي لذمة تربيتك ، لما قدمت
شيئا على ان اذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ،
فتخير في اثنتين لا بد لك منهما : اما ان تذهب عني
في الارض المريضة ، لا اسمع لك خبرا ، بعد ان
تعطيني على ذلك الايمان الموثقة ، وانهض بذلك لما
اردت من مال وغيره ، واما ان تقيم على كرهى ورغوى
مستهدفا الي ، فخذ الآن حذرک مني ، فلست والله
ابقي عليك ، ولا ادع اغتيالک باذلا بذلك بدني ومالي ،
فاقض قضاءك .

خرج زرياب وهو يفكر بالامر ، فهو يعلم ان
استاذة لا يحجم عن قتله اذا اقام في بغداد ، ولا بد له
من الرحيل عنها في بلاد الله الواسعة - وعلى هذا
عاد الى استاذة وابدى له رغبته في الرحيل عن
بغداد ، والتوجه الى بلاد المغرب بعيدا عن اسحاق
وبغداد - هذا روع اسحاق وزال عنه ما كان في
قلبه من هم ، وساعد زرياب بما يحتاجه من مال .

وبعد ايام فرغ الرشيد من شغل كان منغمسا
فيه ، واشتاق الى سماع اصوات زرياب ، فامر
اسحاق الموصلي باحضاره .

واسحاق من دهاة عصره ، قد ارضى الخليفة
ورجال دولته في تصرفه ورجاحة عقله ، فهل
يعجز عن اجابة الخليفة بما يضرفه عن زرياب ؟

قال اسحاق : ومن لي به يا امير المؤمنين ؟
ذاك غلام مجنون ، يزعم ان الجن تكلمه وتطارحه ما
يزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ،
وما هو الا ان ابطات عليه جائزة امير المؤمنين ،
وترك استعادته ، فقدر التقصير به ، والتهوين
بصناعته ، فذهب مغاضبا ذاهبا على وجهه ،
مستخفيا عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك
لامير المؤمنين ، فان كان به لم يفشاه ويفرط خطه ،
فيفزع من رآه .

سكن الرشيد الى ما قاله اسحاق ، وقال :
على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير .

وهكذا تمكن اسحاق من صرف زرياب عن بغداد ، وصرف الرشيد عن زرياب ، وصرف الهم عن قلبه .

- 4 -

نسي امر زرياب في المشرق ، ولم تقف على ذكر له بين الفنانين الذين نبغوا في العصر العباسي . ومع ان ابا الفرج الاصفهاني ترجم في كتابه (الاغاني) لاصحاب الاصوات الذين عانوا صناعة الفناء في المشرق ، فانه لم يتطرق الى ذكر زرياب والاصوات الجميلة التي وضعها - ذلك لانه اول نبوغه هدد بالقتل ان لم يرحل عن بغداد - فرحل الى بلاد واسعة ، ووجد اهلا غير اهله ، واقبالا لم يكن يتوقعه ، فكان زعيم الفناء في الاندلس والمغرب - كل هذا ولم يدون اهل بغداد ما ابدعه فتى اسحاق الموصلي الذي خرج من بغداد خائفا يترقب .

توجه زرياب الى الشام ، ومنها الى مصر ، ومنها ركب البحر قاصدا المغرب ، ولما وصل تونس اتصل بزيادة الله بن الاغلب (201 - 208 هـ) وحظي عنده ، فكان يحضر مجالسه ، ويشارك بما يدور فيها من ادب وفن ، ويغنيه ، فأعجب به ابن الاغلب وقربه اليه .

وفي احد الايام من سنة 206 هـ طلب ابن الاغلب من زرياب ان يغنيه ، فغناه بأبيات لعنترة الفوارس :

فان تك امي غرايبة

من ابناء حمام بها عبتني

فاني لطيف ببيض الطبا

وسمر العوالي اذا جئتني

ولولا فرارك يوم الوغا

لقدتك في الحرب او قدتني

ففضب ابن الاغلب من تعريضه هذا ، وامر بصفع ففاه ، واخرجه من عنده ، وقال له : ان وجدت في شيء من بلدي بعد ثلاثة ايام ضربت عنقك .

ولا نعلم سببا لتعريضه بالامير الاغلب ، وزرياب من اذكى عصره ، فطن دقيق الملاحظة ، فهل كان

هذا هفوة من زرياب ؟ او خاطر خطر له ؟ وربما كان الامر في نفسه - وعلى كل فقد بدر منه ما اغضب ابن الاغلب ، واوجب خروجه من تونس قاصدا بلاد الاندلس .

- 5 -

وكان اهل الاندلس يتطلعون الى ما في المشرق من حضارة زاهية ، وعلم وادب وفن ، وجدوا في الاستفادة مما عند القوم ، فرحل الكثير من اهل الاندلس الى بلاد المشرق ، واخذوا عن علمائه وادبائه ، وتعلموا فنونه وصناعاته ، ورجعوا الى بلادهم ينشرون ما حملوه معهم .

كما رغب الامراء الامويون بنوايح اهل المشرق ، وشوقهم بالرحلة الى بلادهم ، وبذلوا لهم الاموال الوفيرة ، وقدموا لهم كل مساعدة ، ليستفيدوا من علمهم وفنهم . وكانوا يبذلون الاموال في الحصول على ما يستجد في المشرق من كتب قيمة . فقد بذل الامير الحكم لابي الفرج الاصفهاني الف دينار قيمة نسخة من كتابه الاغاني قبل ان ينتشر في المشرق .

هذا الاقبال من اهل الاندلس حمل العلماء وارباب الفنون ان يعمموا شطرها ، ويرحلوا اليها ، وينشروا علومهم ومعارفهم فيها . فرحل عدد منهم الى الاندلس ، ونالوا من امرائها واهلها من الحفاوة والاحترام والاموال الوفيرة ، ما حملهم ان يستقروا في هذا البلد الطيب ، واثروا آثارا حسنة في التدريس والمحاضرة والتأليف .

كتب زرياب الى الامير الحكم بن هشام ، يعلمه بمكانته في الفناء ، ويمرض عليه التوجه اليه . فسر الحكم بهذا ، وكتب اليه مرجبا به ، وارسل لاستقباله وتدبير سفره مغنيه منصور اليهودي .

ولما كان في الجزيرة الخضراء ، بلغه وفاة الحكم ، فهم بالعودة الى بلاد العدو ، ففناه عن ذلك رسول الحكم ، وبين له شغف عبد الرحمن بن الحكم بالفناء والموسيقى . ورفع منصور اليهودي امر زرياب الى عبد الرحمن يعلمه بمكانته ، وعبد الرحمن هذا من اكثر الاسماء الاندلسيين شغفا بالاداب والفنون والفناء . يحضر مجلسه العلماء والادباء وارباب الفن - وخاصة المغنون والموسيقيون - وهو يجزل لهم العطاء . سر عبد الرحمن بخبر زرياب ، وكتب اليه يعلمه بتطلعه اليه ، والسرور بقدمه عليه ،

حتى قالوا : يؤثر على بلاط الامير عبد الرحمن اربعة اشخاص : فقيه : يحيى بن يحيى الليثي ، وموسيقى : ابو الحسن زرياب ، وامرأة : السلطانة طروب ، وخصي : نصر .

ومع انه كان مسموع الكلمة فى البلاط الاموي ، الا ان عقله منعه عن التدخل فى شؤون سياسة البلد ، وتركها لغيره .

صرف نفسه الى فنه الذى كان سبب ظهوره ونبوغه ، لانه علم حق العلم ان خير طريق للنجاح فى الحياة هو تجنب ما لا نصيب له فيه ، والانصراف الى فنه الرفيع الذى ينقاد اليه الامير ورجال سياسته ، على اختلاف ميولهم ورغباتهم - وعلى هذا فلا نرى له ذكرا فى الحوادث السياسية ، التى كانت على عهده ، فهو مغنى البلاط وكفى .

انصرف زرياب الى الغناء والابتكار فيه ، وشغل بهذا كل مواهبه وقابليته ، واطلع على ما فى الاندلس من الحان ، اخذ بعضها عن سكان البلاد الاصليين ، فكانت هذه عاملا جديدا فى تطعيم الاصوات التى يبتكرها ، كان الغناء قد شغل كل وقته حتى اذا رقد فى منامه ، فانه كان يواصل تفكيره فى الاصوات المختلفة ، والاشعار التى تناسب كل لحن يغنيه ، فلم تنقطع سلسلة افكاره عن هذا الفن الجميل . فاذا آوى الى فراشه واهتدى الى لحن جديد ، او شعر جميل ، هب من نومه مسرعا ، فيدعو جاريته غزلان وهنيدة ، فتأخذان عوديهما ، ويأخذ هو عوده ، ويطارحهما ليلته ما اهتدى اليه من لحن ، ويكتب الشعر الذى نظمه ، حتى اذا اتقنتاه عاد الى فراشه .

وعلى هذا قال عنه معاصروه : ان الجن كانت تطارحه الالحان ليلا فيتعلمها . وما الجن الا شغفه بهذا الفن الرفيع الذى كان قد اخذ عليه كل وقته - حتى عند النوم فانه كان يحلم فى ترديد الاصوات وترجييعها ، هذا هو الالهام الفنى - جنون الفن - وهو ما قيل عن كثير من الشعراء والفنانين الموهوبين الذين يبدعون فى شعرهم وفنهم . وكم ذكروا ان للشعراء شياطين يوحون اليهم زخرف القول ، فيأتون بما لم يات به غيرهم . وما شياطينهم الا

ويمنيه ويرغبه . كما كتب الى عماله على البلاد التى سيمر بها زرياب ، ان يحسنوا اليه ، ويقدموا اليه كل ما يحتاجه ، ويوصلوه الى قرطبة .

وارسل الى احد اكابر مواليه ان يثقله ببغال وآلات حسنة . دخل زرياب قرطبة ليلا - صيانة لحرمه - وامر الامير ان ينزلوه فى دار جميلة من احسن الدور ، وان يحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وان يحملوا اليه الخلع .

وبعد ثلاثة ايام استدعاه ، ورحب به اجمل ترحيب ، ودعاه الى تناول الطعام معه ، مع اولاده الكبار ، وامر ان يفرض له ولاهله من الرواتب والخلع ما يقدر بالآلاف الدنانير سنويا ، واقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ، ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار سنويا .

وزرياب قد اعد نفسه لثل هذا اليوم الذى كان يترقبه ، فهو فى كنف امير معجب به ، مشغوف الى سماعه ، فابدى فى الاصوات التى كان يغنيه بها ، فما ان سمعه عبد الرحمان حتى استهواه ، واجبه حبا شديدا ، واطرح كل ما سواه من الفنين ، وادناه من مجلسه ، وامر بفتح باب خاص لزرياب يستدعيه منه متى اراده . وزرياب قد جمع الى ما امتاز به من الغناء ، غداة مزايا رفيعة : كان شاعرا عارفا بفنون الادب ، ونظف المعاشرة والظرافة ، وعنده من آداب المجالسة ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة اللوكية ، مالم نجده عند غيره من اهل صناعته .

كيف لا يجمع زرياب هذه الصفات الجميلة ، وهو الذى تربى فى بلاط العباسيين ، وتقلب فى نعيمهم ، وتنقل فى جنائهم وخمائلمهم ، وحضر مجالسهم ، ولازم اعالي القوم فى العلم والادب والفن - ربيب المهدي العباسي ، وتلميذ اسحاق الموصلي ، وخريج مدرسة بغداد دار العلم والحكمة والفن . هذه الخصال اثرت فى اهل الاندلس ، حتى اتخذهم ملوكهم وخواصهم قدوة حسنة فيما سنه لهم من قواعد وآداب ، واستحسنه من اطعمة وثياب ، وما ابتكره من عطور - وبقي اثر هذا فيهم الى آخر ايام اهل الاندلس منسوباً اليه .

وهكذا انتقلت الدنيا لزرياب ، فقد كان مرجع القوم فى الغناء وفى التأثيرات الاجتماعية ، تسمع كلمته فى البلاط الاموي ، وينقاد اليه سراة القوم ووجهائهم ، يبذلون له العطاء ويتوقعون رضاه ،

انصرافهم الى الشعر وكثرة تفكيرهم فى محاسنه واوازانه ، وروائعه ، فيأتون بما لم يتفهم .

— 6 —

كان لزياب معهد يقصده اصحاب الخناجر الرخمة ، والاصوات الجميلة ، يتلقون عنه الالحان ، وما ابدعه من الاصوات والايقاعات .

ولم يكن زرياب يقبل احدا فى معهده ، الا بعد ان يقف على نبرات صوته ، وصلاح حنجرتيه ، وقابليته الى تلقي الالحان والاصوات ، وعلى هذا فقد كان يختبر من يقصده للأخذ عنه - وقد حدثنا المقرئ عن كيفية اختباره لمن يقصده فقال :

« وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت - المراد تعليمه - من غير المطبوع ، امره ان يصيح بأعلى صوته : يا حجام . او يصيح : آه . ويمد صوته ، فاذا سمع صوته بهما صافيا نديا قويا مؤديا لا يعتريه غنة ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف انه سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك ابعده .

وهكذا بعد ان يختبر من يقصده ، ويتحقق صلاحه ، يسلمه الى الذين يأخذون عنه ، فيتعهدون تدريبه تدريجا اوليا ، حتى اذا وقف على مبادئ هذا الفن الجميل ، تعهده بنفسه مع الذين يأخذون عنه . فاذا حضر التلميذ عنده للأخذ عنه ، كان يرشده الى كيفية الجلوس ، وطريقة اخراج الصوت من الفم ، والطرق التى يحسن بها نبرات صوته ، بحيث يجعله يناسب اللحن والايقاع اذا ما غنى .

قال المقرئ فى هذا :

« وكان اذا تناول الالتقاء على تلميذ يعلمه ، امره بالقعود على الوسائد المدورة المعروفة بالمسورة ، وان يشد صوته جدا - اذا كان قوي الصوت - فان كان لينه ، امره ان يشد على بطنه عمامة ، فان ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعا فى الجوف عند الخروج عن الفم . فان كان الص الاضراس ، لا يقدر

ان يفتح فاه ، او كانت عادته زم اسنانه عند النطق ، راضه بان يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث اصابع يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكاه ، وهو رأى عالم بنبرات الاصوات ومخارجها ، وما يساعد على تهذيبها واطهارها بصورة جلية .

اخذ عن زرياب اولاده وكثير من اهل الاندلس رجلا ونساء ، ونشروا فنه فى طول الاندلس وعرضها ، فكانوا دعاء نهضة فنية ، طغت على الاندلس ، وتعدتها الى شمال افريقية ، وطبعتها بطابع الالحان التى ابدعها زرياب . بقيت هذه النهضة الى القرن الثامن للهجرة ، وهي تسير على القواعد التى وضعها زرياب والالحان التى ابتكرها وابدع فيها ، مما جعل ابن خلدون يقول عن تأثير غنائه :

فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ، ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، ولما منها باشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضايتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على انصارها ، وبها الآن صباية على تراجع عمرائها وتناقض دولها .

ومن اخذ عنه وبرز فى الغناء اولاده العشرة (1) :

1 - عبيد الله كان خليفة والده ، واعلا اخوته فى الغناء .

2 - عبد الرحمن : وهذا يلى عبيد الله فى الغناء ، وكان يشوب علمه تيه وزهو وكثرة العجب بغنائه ، وهذا مما سبب له مشاكل كثيرة فى مجالس الغناء التى كان يقيمها (2) ، ويذكر ابن خلدون ان عبد الرحمن هذا خلف والده فى هذه الصناعة ، ولربما عمر اكثر من عبيد الله ، فكان المرجع اليه فى الغناء .

3 - اما محمد بن زرياب فكان مؤنثا .

4 - واما القاسم بن زرياب : فكان احدهم غناء مع تجويده .

5 - واما احمد بن زرياب : فكان قد غلب عليه الشعر .

(1) كان لزياب اربعة اولاد يوم دخل الاندلس ، وهم : عبد الرحمن وجعفر ، وعبيد الله ويحيى . وولد له فى الاندلس اربعة بنين : محمد وقاسم واحمد وحسن ، وبناتان : علية وحمدونة .

(2) نفح الطيب : 4 : 125 .

6 - وأما حمدونة بنت زرياب: فكانت متقدمة في أهل بيتها ، محسنة لصنائعها ، تزوجها الوزير هشام بن عبد العزيز .

7 - أما عليّة بنت زرياب : فطال عمرها بعد اختها حمدونة ، ولم يبق من أهل بيتها غيرها ، فافتقر الناس إليها ، وحملوا عنها ، فكانت مرجعا للمعهد الزريابي ، يقصدها أهل الفن ، ويأخذون عنها .

ومن جواربه :

1 - مصابيح : جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل ، وهي ممن أخذ عن زرياب ، وصارت غاية في الاحسان والنبل وطيب الصوت .

مر ابن عبد ربه (3) فسمع غناءها ، واشتاق ان يدخل اليها فأبى مولاها . فقال ابن عبد ربه الى مسجد قريب من المكان ، واخذ لوحا من صبي وكتب هذه الابيات وارسلها الى مولاها :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد
ما كنت احسب هذا الضن من احد

لو ان اسماع اهل الارض قاطبة
اصفت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلا تضن على سمعي مقلده
صوتا يجول مجال الروح في الجسد

لو كان زرياب حيا ثم اسمعه
لذاب من حسد، او مات من كمد

اما النبيل فاني لست اشربه
ولست آتيك الا كسرتي بيدي

فلما قراها مولاها ، خرج اليه حافيا ، وادخله مجلسه ، وتمتع ابن عبد ربه من سماعها .

2 - متعة : جارية زرياب ، اعتنى في تاديبها وتعليمها احسن اغانيه ، وشبت رائعة الجمال ، وتصرفت بين يدي الامير عبد الرحمن بن الحكم ، تغنيه مرة، وتسقيه اخرى، وكان الامير معجبا بجمالها وبصوتها ، فلما فطنت لاجابه بها ، ابدت له دلائل الرغبة ، ولكنه أبى الا التستر ، فنظمت هذه الابيات وغنته بها :

(3) صاحب « العقد الفريد » .

يا من يغطي هواه
من ذا يغطي النهار ؟

قد كنت املك قلبي
حتى علقت فطارا

يا ويلتاه انسراه
لي كان ، او مستعارا ؟

يا بابسي قرشي
خلعت فيه المدارا

فلما انكشف لزرياب امرها ، اهداها الى الامير عبد الرحمن ، وحظيت عنده .

3 - اما هنيذة وغزلان فقد تقدم الكلام عنهما .

ومما اجراه على العود في الاندلس :

(1) كانت اعواد القوم ذات اربعة اوتار ، فاضاف هو اليها وترا خامسا ، واتخذ الاوتار من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها انانة ورخاوة وقد تقدم الكلام عنها .

2 - كانت الاعواد ثقيلة الوزن ، تجهد الضارب، وربما عاقته عن تأدية الضرب كما يسوى ، فجعل زرياب عوده صغير الحجم ، خفيف الوزن ، جميل الشكل ، دقيق الصنع ، يستهوي النفس ، ويمثل جمال الالحن التي يضربها زرياب .

(3) كانت مضارب العود من خشب ، ثقيلة على الانامل ، تؤثر في الاوتار عند الضرب ، وربما قطعتها او افسدتها في ايام معدودة . فعدل عنها زرياب بأن اتخذ المضرب من قوادم النسر : خفيف على الانامل ، رفيق بالاوتار ، لين في اليد ، مرن الاستعمال ، يحدث اهتزازات في الاوتار ، ما لم تحدثه المضارب الخشبية الصلبة .

ومما سته في الغناء : ان كل من افتتح الغناء يبدأ بالنشيد اول شذوه باي تقرر كان، ويأتي اثره بالبسيط، يختم بالحركات والاهواج تبعا لمراسيم زرياب .

ذكر المؤرخون ان اسلم بن احمد بن سعيد ألف كتابا في الاصوات التي وضعها

الاجتماعية فيها : الطعام والازياء وتصنيف الشعر
وابتكار عطور وادهان وغير ذلك .

ففى الطعام وما يتبعه من لوازم :

1 - كان زرياب اول من اجتنى بقلة الهليون
المسماة بلسانهم بالاسفراج ، ولم يكونوا يعرفونها
قبله .

2 - وعلمهم زرياب طبخ النقايا ، وهو مصطنع
بماء الكزبرة الرطبة ، محلى بالسنبوسق والكباب ،
ويلي هذا عندهم لون الثقيلة المنسوبة اليه «زريابية» .

3 - كان الاندلسيون يتخذون الآنية الرفيعة
الثلث ، ويحولونها بالذهب والفضة ، ويتنافسون فى
هذا ، فاتخذ زرياب آتيته من الزجاج الجميل ،
فقلده الاندلسيون فى هذا .

4 - فضل زرياب استعمال سفر الاديم على
الموائد الخشبية لتقديم الطعام ، لان الوضر يزول عن
الاديم باقل مسحة ، فأخذ الاندلسيون بهذا .

5 - كان زرياب يفضل فرش الانطاع الاديمة
الناعمة اللينة على ملاحف الكتان ، فانتشر هذا فى
الاندلس .

واما تأثيره على الازياء فى الاندلس : فانه رأى
ان يلبس كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق
به . فيكون ابتداء الناس بلباس البياض . ثم يلبسون
اللون من يوم مهرجان اهل البلد المسمى عندهم
« بالعنصرة » الكائن فى ست بقين من شهر يونيو
(حزيران) ، الى اواخر شهر اكتوبر (تشرين الاول) .
وان يلبسوا بقية السنة الثياب الملونة .

ورأى ان يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر
والبرد المسمى عندهم « الربيع » من مصبغهم جباب
الخز واللحم والمحرق والدراريع التى لا بطائن لها ،
لقربها من لطف ثياب البياض .

وكذا رأى ان يلبسوا فى آخر الصيف وعند
اول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما
شاكلها من خفائف الثياب الملونة ، ذوات الحشو
والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد فى
الغدوات ، الى ان يقوى البرد ، فينتقلون الى اثنى
منها من الملونات ، ويستظفرون من تحتها اذا احتاجوا
الى صنوف الفراء .

زرياب ، ومما يؤسف له ، اننا لم نقف
على ذكر لهذا السفر النفيس ، الذى جمع
روائع الفن وما ابتكره زرياب من اصوات جميلة ، وما
نظمه من شعر يقنى به . فان هذا الكتاب كان يطلعنا
على الحان رائعة ، واصوات مبتكرة ، ابدعتها
قريحة زرياب - طمست مع افول شمس العرب فى
الاندلس ، ولم يبق منها ، الا صياحة تذكرنا بما كان
من التأثير القوي فى الفناء الاندلسي الذى قرر
قواعده ، معلم الناس الفن والمروءة (زرياب) .

زرياب من نوادر عصره ، جمع - الى تفوقه فى
الفناء - علوما وفنونا وآدابا . ذكروا عنه انه كان
يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها ،
وهذا ما ساعده على حل كتاب الموسيقى لبطليموس ،
لان هذا العدد هو غاية ما ذكره بطليموس - واضع
هذه العلوم ومؤلفها - فى كتابه .

كان زرياب شاعرا ، ويمتاز شعره بالركة
والعذوبة ، كيف لا يكون شعره رائقا ، وقد صدر
عن شيخ الفنانين صاحب الاصوات المبتكرة البديعة ،
والالحن التى لم يزل تأثيرها فى الشرق والغرب .
ومن شعره :

علقتها ربحانة هيفاء عاطرة نضيره
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيره
لله ايام لنا سلفت على دير المطيره
لا عيب فيها للمتيسم غير ان كانت قصيره

وقوله ايضا :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقتني
حمام تداعت فى الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كل ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

كان عالما بالنجوم واحكامها ، يعرف الاقاليم
السبعة وما فيها من عوارض طبيعية ، ومدن وعمران ،
وما فى هذه من سكان وخيرات ، ويعرف طبائع
ومبول سكانها ، وما تشتهر به كل مدينة ، فاذا تكلم
بهذا تكلم عن علم ومعرفة .

لم يقتصر تأثير زرياب على اهل الاندلس فى
الفناء فقط ، بل كان له تأثير كبير على الحياة

وأما تأثيره على تصفيف الشعر : دخل الاندلس
وجميع من فيها - من رجل أو امرأة - يرسل جمته
مفروقا وسط الجبين عاما للصدفين والحاجبين ،
فلما راوا تحذيفه هو وولده ونساءه لشعورهم ،
وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ،
وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى اصداعهم -
هوت اليه انفسهم ، فاستحسنوه وقلدوه .

وابتكر ادهانا ومعاجين لطيفة وروائح عطرية
تزيد من جمال البشرة وتكسبها رونقا وبهاء .

كان ملوك الاندلس والمترفون يستعملون ذرور
الورد وزهور الريحان وما شاكل ذلك من ذوات
القبض والبرد لطرد الصنار والروائح الكريهة ، فلا
تسلم ثيابهم من ضرر . فداهم على تصعيدها بالملح
وتبييض لونها ، فجربوه وحمدوه على ذلك .

هذا تأثير زرباب على اهل الاندلس ، فقد كان
باملا قويا في تهذيب اغانيهم وتنسيق ثيابهم ،
وتهذيب طعامهم وآنيتهم وآدابهم الاجتماعية ، فهو
قدوة القوم في كل ما يصدر عنه . وعلى هذا فان
اهل الاندلس احلوا زرباب بالمحل اللائق به ، وبخدماته
الجليلة التي سنها لهم . فقد حظي فتى اسحاق الذي
ترك بغداد مكرها من الفنى والترف والعزة ، ما
جعله مضرب المثل في الاندلس ، ويتعدها الى شمال
افريقية ، ويتجاوزها الى بلاد الشرق . ومن ذلك ما
رواه الصابي في كتابه الهفوات النادرة قال : (ص :
385 - 386)

حدث علوية المغني قال: كنت مع المأمون لما خرج
الى الشام ، فدخلنا الى دمشق ، وطفنا فيها ، وجعل
يطوف على قصور بني أمية ويتتبع آثارهم ، فدخل
صحنا من صحنها ، فاذا هو مفروش بالرخام
الاخضر كله ، وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من
عين تصب اليها و . . . واقبل المأمون علي فقال :
غني ونشطني ، فكان الله عز وجل انساني جميع
ما احفظه الا هذا الصوت :

لو كان حولي بنو أمية لم
ينطق رجال اراهم نطقوا

فنظر الي مفضبا وقال : عليك لعنة الله وعلى
بني أمية ، وبلك قلت لك سرني ام سؤني ، الم يكن
لك وقت تمدح فيه بني أمية الا هذا الوقت ؟

فتجلدت عليه ، وعلمت اني قد اخطأت ، فقلت:
اتلومني على أن اذكر بني أمية ، هذا مولاكم زرباب
عندهم يركب في مائتي غلام مملوك له ، ويملك
ثلاثمائة الف دينار وهبها له ، سوى الضياع
والخيل والرقيق وأنا عندكم اموت جوعا .

هذا هو زرباب الذي ترك بغداد مكرها ، وعاش
في الاندلس مترفا مكرما ، وصار مضرب المثل في
الشرق والغرب .